Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

الإلمامُ
بمَن وافقَ حُكمُهُ للمغرِبِ
استهلالَ المائةِ عامْ

د. عبد الهادي التازي

مستل من (دعوة الحق)
بمناسبة عيدها الفضي
العدد 223 رمضان ـ شوال 1402 ـ يوليو 1982

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)

كلمــة أولــى :

إخترت لهذه الرسالة ذلك العنوان التقليدي : «الإلمام، بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام» عوض أن يكون مثلا : مختصر لتاريخ الملوك المغاربة الذين صادفتهم مطالع القرون الهجرية وهم يمارسون الحكم ... اخترت ذلك استئناسا بما جرى عليه عرف المتقدمين من استعمال مثل تلك العناوين لمثل هذه المضامين...

والرسالة في الواقع إنما هي اقتباس من كتاب تاريخ المغرب الدبلوماسي الذي استوعب الحديث عن أولئك الرجال الذين كان لهم دور في صنع تاريخ هذه البلاد.

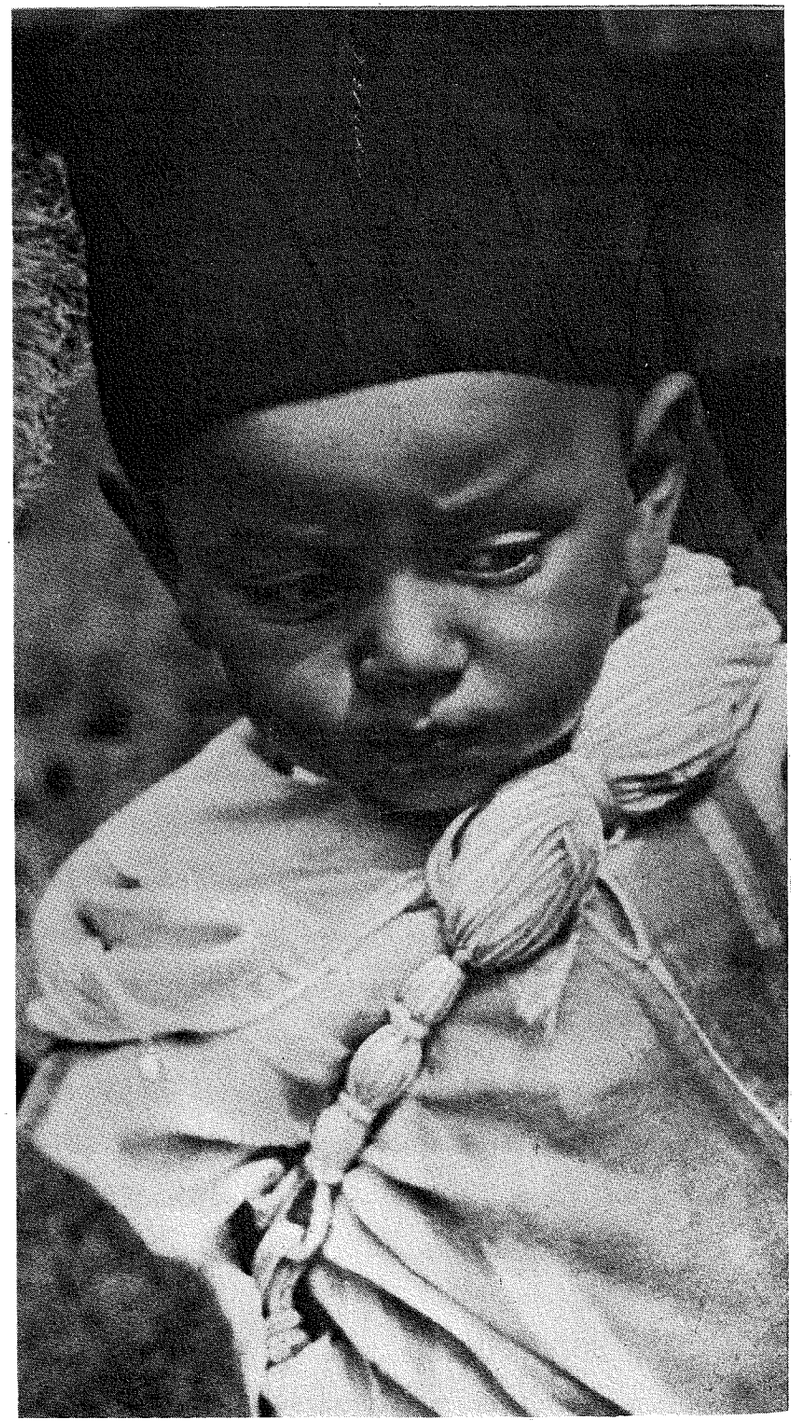

الرحلة الأولى

«لقد كان سمو وليّ العهد الأمير مولاي الحسن - وعمره لايتجاوز السنتين - يرد بلطف على تحيات الجماهير التي استقبلته على جنبات الطريق، يرفع يمناه التي كانت تتحلّى بخاتم لمّاع مثير للانتباه... وقد علا كتفه الأيسر مجدول يحمل خنجرا ذهبيا مرصّعا بأحجار كريمة. كان يرتدي جلبابا حريريا ناعما وعلى رأسه الطربوش التقليدي... صحب في رحلته الأولى هذه والده جلالة الملك سيدي محمد بن يوسف الذي ترك أثرا عميقا لدى كلّ الأوساط وفي كلّ الجهات التي زارها».

بهذا علقت المجلة الأوربية (VU) على هذه الصورة بتاريخ 12 غشت 1931.

تمهيد

لم يكن هناك بالنسبة للعالم الإسلامي، في فجر أيامه، غير أعياد ثلاثة دأب المسلمون على الاحتفاء بها وإيثار أيامها بمظاهر خاصة، تلك عيد الفطر الذي يأتي في أعقاب شهر رمضان المعظم، وعيد الأضحى الذي يأتي مباشرة بعد يوم عرفات حيث يؤدي المسلمون فريضة الحج، ثم يوم الجمعة الذي يكون عيدا ثالثا له حرمته حيث يذر المسلمون بيعهم وشراءهم ويتجهون إلى سماع الخطبة وأداء فريضة الجمعة.

وهكذا فلم يكن هناك ما نسميه اليوم (عيد المولد) أو (عيد الهجرة) أو (عيد أول السنة) ومن ثمة ظلت كتب التاريخ الإسلامي القديمة خالية من كل إشارة تدل على أن الجماعة الإسلامية سواء على مستوى الحكومات أو على مستوى الأفراد، كانت تقوم بإحياء أعياد غير الأعياد الثلاثة السالفة الذكر... ومن ثمت لم نر ذكرا لها في عهد الأدارسة والمرابطين والموحدين...

إلا أن بعض الجهات الإسلامية لم تلبث أن تنبهت إلى ضرورة الاهتمام بالحدث العظيم الذي يتجلى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم. ولا بد أن المفكرين من المسلمين آنذاك وازنوا بين أيام الإسلام المحجلة ليختاروا منها يوما يكون هو المناسبة... وهكذا وقع الاختيار على حادث ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره طالع يمن على الكائنات البشرية.

ومن الموافقات الغريبة أن نجد أن الاهتمام بالموضوع، بصفة منتظمة، يأتي من المغاربة تقريبا في نفس الوقت الذي أخذ فيه القادة بالمشرق يقيمون احتفالات المولد، هل هو توارد خواطر أم كان مما يدخل في إطار التنافس بين قادة المشرق والمغرب... قد يكون هذا وذاك...

ولقد كانت الجهات التي تنبهت إلى هذه المنقبة هناك أواخر القرن السادس الهجري أسرة بيگتيگين ((BEGTEGIN) في شخص زعيمها مظفر الدين كوكبوري ((KOKBÜRI) صاحب إربل...

فقد تحدث ابن خلكان في وفياته عن احتفال هذا الملك بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كان يصل إليه في كل سنة من البلاد القريبة كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول حيث تتميز الاحتفالات بإنشاد السماع واستعراض سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وإيقاد الشموع الموكبية التي تحمل على البغال، كما تتميز بإطلاق البخور وتقديم السماط للحاضرين...

وقد كان ابن دحية المغربي في جملة الذين حضروا إربل سنة 604 وشاركوا في تلك الاحتفالات وألفوا لمظفر الدين حولها كتاب «التنوير في مولد السراج المنير»...

أما الذين تنبهوا إلى الموضوع في ديار المغرب فهم أسرة العز في أصحاب سبتة الذين سنوا عيد المولد أواخر القرن السادس في بلاد المغرب «وأتوا بزلفى تدنيهم إلى الله وتقرب» على حد تعبير المقري، وقد رأينا أبا العباس العزفي يشرع في تأليف كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» الذي ينهيه ولده أبو القاسم، كما سنرى ابن مرزوق يؤلف كتابه «جنى الجنتين في فضل الليلتين».

ولم تلبث هذه المناسبة أن اصبحت في عداد الأيام التي تحفل بها الدولة على المستوى الرسمي في سائر الجهات المشمولة بحكم بني مرين سواء في بلاد المغرب أو الأندلس، وهكذا وجدنا السلطان أبا يعقوب يوسف يصدر ظهيرا (مرسوما ملكيا) شتاء سنة 691 = 1292 في أعقاب جواز العاهل المريني إلى الأندلس لرد عدوان المغيرين على الثغور التابعة للمغرب... وجدناه يشرع الاحتفال بعيد المولد في سائر جهات المغرب ويعتبره يوما رسميا للدولة، تتلقى فيه التهاني من سائر طبقات البلاد، الأمر الذي استمر عليه التقليد إلى اليوم في المغرب الأقصى.

وإذا كانت مجالس الاحتفال بهذه المناسبة قد أصبحت عادية عند بني مرين بفاس... فإنها عند إخوانهم بني عبد الواد في تلمسان أثارت

انتباه يحيى ابن خلدون الذي تحدث هو الآخر عن المشاعل التي كانت تحكي الاسطوانات القائمة، كما يحكي عن المباخر الضخمة، ويحكي عن السماع الذي يسترسل إلى آخر الليل علاوة على نصب السماط !!

ولا بد أن نلاحظ أن الدواعي التي كانت وراء إنشاء مثل هذا الاحتفال بعيد المولد لم تكن فقط التعقيب على الشيعة الذين اعتادوا الاحتفال بمولد الإمام علي والحسين، ولكن الأمر يتعلق بتقليد العادة التي جرى عليها المسيحيون في احتفالهم بعيد السيد المسيح وإقامتهم المهرجانات لأجل تلك المناسبة.

إن أهل سبتة أقرب الناس جوارا للمسيحيين وقد تتبع المسلمون دون شك اهتمام ذلك العالم المسيحي بأعياد الميلاد ومطالع العام فقاموا أي المغاربة هم كذلك بسن عيد المولد اجتهادا منهم وتعبيرا عن تشبث المسلمين بدينهم واعتزازهم بنبيهم...

وما من شك في أن أهل (إربل) انطلقوا من نفس المنطلق سيما وهم يحتكون هناك بالمسيحيين من كل جانب... لقد كان الأمر يقتضي ضربا من المنافسات والمفاخرات والمتابعات... ولا بد أن نلاحظ أن فترة التقليد من جانب المسلمين اقترنت باحتفال العالم المسيحي **بمطلع القرن الثالث عشر الميلادي** الذي اهتزت له المحافل الدينية مما زاد في حماس المسلمين لتشريع منقبة الاحتفال بالمولد.

وعندما كان أسلافنا هنا أو هناك يحتفلون بعيد المولد... كانوا يحتفلون أيضا بذكرى الهجرة التي تعتبر بإجماع المسلمين الحد الفاصل بين عهدين، أفلم نسمع أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إنما انطلقت في واقع الأمر عند الأيام الأولى لشهر ربيع الأول التي كانت تصادف أيام مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا وجدوا في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ظرفا مناسبا للاحتفال أيضا بالهجرة والتنويه بها.

وعندما أمر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام 17 بحساب الهجرة من اليوم الأول من المحرم وليس من ربيع الأول، فإنه كان يعرف

أن نيته وعزمه صلى الله عليه وسلم على الهجرة كانت ابتداء من أول المحرم أي قبل شهرين من تنفيذ الخطة، واختيار عمر رضي الله عنه يأخذ بإشارة القرآن الكريم إلى «أول يوم» في حياة المسلمين عندما تحدث القرآن عن المسجد الذي أسس على التقوى بدار الهجرة، وقد نص ابن خلكان على أن بداية الاحتفال بالمولد كانت تنطلق من المحرم...

وهكذا رأينا أن الاحتفال بعيد المولد لم يلبث أن هدى الناس جميعا إلى الاحتفال باليوم الأول من السنة الهجرية، لأن المناسبتين متلازمتان، ومعنى هذا أن أسلافنا الذين قلدوا المسيحيين في الاحتفال بعيد الميلاد كانوا يقلدونهم أيضا في الاحتفال بمطلع السنة، ولم يجد العلماء في هذه «البدعة الحسنة» من بأس ما دام القصد إلى أن يتخذ المسلمون من هذه المناسبة فرصة للتأمل واستعراض التاريخ...

وقد رأينا ونحن نعيش استهلال القرن الخامس عشر الهجري أن نسهم بهذه المناسبة بتقديم ومضات سريعة عن **الشخصيات الخمس عشرة** التي صادفتها مطالع القرون الهجرية وهي تحكم بأرض المغرب تذكيرا واعتبارا سيما وفي تلك الشخصيات من كان بعيدا عن مناخ المغرب وفيها من ورد عليه من المشرق وفيها من كان يسير في ركب الفاطميين بالمهدية أو في ركب الأمويين بقرطبة، ولو أن جلها أي تلك الشخصيات ينتمي لصميم الصحراء المغربية على ما نراه منذ ظهور المرابطين إلى العلويين...